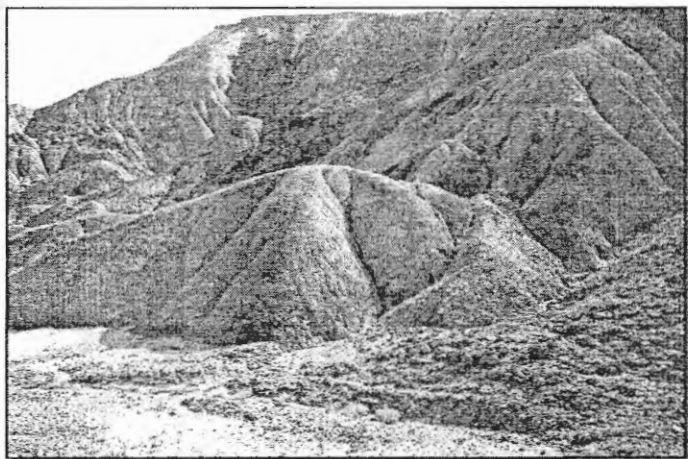


الفصل الخامس

عروة بن الورد ..

هل كان صعلوكاً «نبيلاً»؟!..



رسم لظا راجفان

... في هذا الزمان

...؟ كلبه لا يلعبه في الزمان



كان الصباح يتنفس حين دقت أياد معروقة بآبه...
 كانوا ضامري الأجساد مهزولي الأذرع وعلى شفاههم يَبَّاس أجوافهم...
 قالوا له: يا أبا الصعاليك أغثنا.. فالعام عام جوع..
 فكان أن اشتمل بعباءته.. وقفز إلى ظهر حصانه ونظر في جهات الوادي
 الأربع.. وقال: اتبعوني..
 تمثروا خلفه.. لكن يقيَنهم أنه لن يخذلهم أعطاهم دفعا معنويا شداً على أقدامهم
 فإذا بهم يسبحون فوق الرمال.. كالطير..
 ولم تمضِ سحابة النهار حتى كانوا يغفون في ظلال أشجار الوادي المتناثرة
 ويغطون غطيط المتخم الهانئ البال وعلى مقربة من مضاجعهم المؤقتة تبعثرت بقايا
 الأسلاب..
 وجاءه فتى يسأله أن يعطيه فأعطاه فرساً وقال له وهو يضرب على مؤخرتها «إن
 لم تستغن بها.. فلا خير فيك..
 .. هو عروة بن الورد بن عمرو بن زيد بن عبد الله بن ناشب العبسي عاصر عنتره
 ولم يختلط به وإن كان كلاهما يكنُّ الاحترام للآخر، فعنتره كان شاعراً «مقيماً» في
 الديار، أما هو فكان من مقتحمي المجهول والآفاق..
 لا أحد يعرف لماذا اتخذ من الصعلكة أسلوباً لحياته..
 هل لأن أباه أثر أخاه عليه..

أو لأنه تخاصم مع قيس بن زهير - صاحب حرب داحس والغبراء - ووصلت
بهما المشاحنات حدّ التقاذف بالهجاء المقذع حين قال فيه قيس :

رأيتك أَلَفاً بيوتَ معاشرٍ نزال يد في فضلٍ صعبٍ ومرفدٍ
فقال له عروة - أو رد عليه هجاءً بهجاءً - :

إني امرؤ عافى إنائي شركةً وأنت امرؤ عافى إنائك واحدٌ
أتَهْزأ مِنِّي أنْ سمِنتَ وأنْ تَرى بجسمي شحوبَ الحقِّ والحقُّ جاهدٌ
أَفَرِّقُ جسمي في جُـسُومٍ كثيرةٍ وأحسُّ قراحَ الماءِ والماءُ باردٌ
.....
فأسكته.

لكن عروة غادر المنسرح، وترك القبيلة في معركتها «الخطأ» مع أبناء عمومتها
ذبيان والتي اصطلح تاريخ العرب على تسميتها «داحس والغبراء» فكان يرى أنها
حرب حمقاء جاهلة - وإن لم يمنعه ذلك من التفاخر أحياناً ببني قومه عبس
- ومبلغ حمق هذه الحرب أن سببها تافه :

كانت القبيلتان في وادٍ وسيع كأنه انضمار، وتراهنّا على سباق جرى بين جواد
يدعى داحس «يعود لقيس بن زهير من أشراف عبس» وفرس تسمى الغبراء «يعود
لحمل بن بدر من أشراف فن فزارة وهم فرع من ذبيان» وتنافس رجلان أحدهما من
عبس والآخر من فزارة حول الجوادين فانتقلت المنافسة إلى قيس بن زهير وحمل
ابن بدر فكان رهان بينهما على عشرة من الإبل تكون للفائز، ومع اعتداد كل فريق
بجواده ارتفع الرهان إلى مئة من الإبل وبدأ السباق وكان حمل بن بدر صاحب
الغبراء قد أعدّ كميناً في طريق السباق قوامه فتيان من قومه أوصاهم بأن يحولوا بين
الجواد داحس وغايته إذا جاء في المقدمة.

وجرى السباق وتجاوز قيس بن زهير بجواده حمل بن بدر بفرسه واقترب الفوز
لداحس لولا أن رده الكمين عن غايته وتمكنت الفرس الغبراء بذلك أن تنال «قصب
السبق».

ولم يقبل سيد عبس بالنتيجة وغضب غضباً شديداً وقعقت السيوف فأغمد قيس سيفه في قلب عوف بن بدر فعاجلت فزارة مالك بن زهير وقتلته، فاستمر مسلسل القتل بين الحيين والذي ما لبث حتى اتسع لتكون حرباً، تستمر وقائعها أربعين سنة متواصلة وتأخذ «مكانتها» في التاريخ على أنها إحدى حماقات العرب الكبرى...

رفضها عروة... وهو ما يوحي بأنه كان يملك عقلية غير عادية حيث لم ينسق وراء عصبية القبيلة ويشاركها الفعلية الحمقاء بل ابتعد... ولعله يكون السبب الذي من أجله هجاه قيس بن زهير الذي استنكف منه هذا الابتعاد وهو أحد فرسان القبيلة المعدودين أو أحد رؤوس حرايبها المشهورين...

هل هذا هو السبب أيضاً... أو أنه كان صعلوكاً حقاً وهي الصفة التي جاء عنها في لسان العرب لابن منظور أن «الصعلوك هو الفقير الذي لا مال له وقد تصعلك الرجل إذا كان كذلك» أو كما جاء في نفس «اللسان» وفي باب صَعَلَكَ «التصعلك الفقر وصعاليك العرب ذؤبانها»...

أو لأن فقره هذا كان «يضع» منازلها في آخر موضع للقبيلة، فمن المعروف أن رؤوس القبيلة تسكن قلب مواضعها يليهم الأقل مكاناً فالأقل فالأقل... فعروة... !!

وإذا أصبح معروفاً لدينا أن بلاد القصيم هي موطن عبس ويطونها متجاوزة فيها مثلما قال الهمداني في صفة جزيرة العرب: «أن من أوطان اليمامة القصيم لعبس» وقال الأصمعي بعد ذكره الرمة واد: و «أسافل الرمة تنتهي إلى القصيم وهو رمل لبني عبس» - وهو ما ذكرناه من قبل في دراستنا المكانية عن عنجرة العبيس - إذا تذكرنا ذلك لعرفنا أين كان موضع عروة وعشيرته خاصة أن عنجرة كان يسكن «قو» - قصيباء حالياً - وهي مكان البطون من عبس بينما تتناثر بقايا القبيلة على مساحة كبيرة.

في القصيم وقفت على الوادي فإذا هو عظيم الاتساع تختلط رماله ببعض «الثوابت» الصخرية لكنه يتميز بقلتها وبنعومة رماله التي لم تمنع بعض شجر الأثل من الطلوع في رائحته، فقد كان الوادي عظيم المياه قديماً، مما يوحي بأنه يحتوى على مخزون جيد من المياه الجوفية.

وقد ذهبت إليه عن طريق مدينة بريدة إحدى أهم مدن منطقة القصيم السعودية، وهو يقع في شمالها الغربي على مسافة تتراوح بين خمسة عشر إلى عشرين كيلومتراً وله طريق آخر بالقرب من بلدة الربيعية كما أن الوادى «يمر» بمدينة عذينة وتقترب حدوده من «ظهر» الجواء التى هى بدايات أرض السادة من بنى عبس..

كان عروة بعيداً بعض الشيء عن مواقع المصادمات المستمرة بين عبس وذيبيان فيما عنتره هناك يتفاخر والناطقة يقارعه فخراً بفخر وهجاء بهجاء..

كان عروة فى هذا المكان الفسيح من الوادى - ربما - تحت ظل شجرة أو خلف جدار بيته المنصوع من البوص يفكر فى حاله وحال من حوله من فقراء القبيلة.. فهل كان ذلك سبباً آخر أو السبب الحقيقى لتصلعله..؟

وإذا اعتبرنا سابقاً أن له عقلية مختلفة جعلته يرفض حرب قومه الحمقاء فمعنى ذلك أن مثل هذا القرار جاء بعد تفكير عميق.. وصاحب التفكير العميق فى مثل هذا الزمان القديم كان نادراً..

وكانت ندرته العقلية سبباً فى تحوله إلى ندرة نوعية.. حيث لم تألف العرب ذلك..

كانت الإغارات للقبيلة برمتها وكانوا يتخذون لذلك سبباً حتى لا يلحق بهم العار فيما بعد أو يصممهم الناس باللصوصية..

لكن أن يُغير شخص.. شخص واحد على مكان بعينه فقد كان ذلك غريباً.. غريباً إلى درجة الجنون..

لكنه جنون العاقل «كما يرى ذلك كثيرون».. فلم يكن يُغير إلا على أغنياء الحى.. ولكن أى أغنياء..!

كان كثير من أهل زمنه من ذوى اليسار يشتهرون بالكرم وإقراء الضيف والعطف على ذوى الحاجة.. فلم يكن له فى مثل هؤلاء حاجة..

كانت حاجته فى انفتحين الأشحاء القابضين على أيديهم «المنغولة إلى أعناقهم» والذين لا تتحرك فيهم أية مشاعر إنسانية حتى لو تلوى الفقير جوعاً أمامهم ونفقاً كالبعير..

كانوا لا يتحركون إلا ليدبروا ظهورهم نثل هذه الحالات التى يعتبرون أصحابها

من الرميم، وعلمهم الذين سموا الوادى «الرمة» لأن فقراءهم فيه.. لكن عروة بدأ يستن نظاماً «اجتماعياً» جديداً فتشاكى ضحاياه وأنفذوا نفوذهم فى القبيلة التى اجتمعت وقررت فى البداية طرده من حظيرتها «ليسهل استحلال دمه» ونا اعترض كثيرون على أنه من ذات الرحم وذات الدم بدءوا يتهجون معه نهجاً نفسياً فيعيرونه بما يفعل أو بما لم يفعل - حتى لا يفعل - فى حين انصرف بعض نسابهم إلى النش فى ذاكرة القبيلة فتبين أن أمه ليست من بنى عبس وأن أباه الورد قد سبها فى إحدى الغزوات القديمة «وهو نفس ما فعله عروة مع سلمى التى سبها أعواماً ثم أولدها بناته وتزوجها بعد ذلك» فبدت صلة أمه مقطوعة النسب ببنى عبس وكأنها سبة على جبينه فعيروه بها فيما بعد إلا إنه لم ينس إساءة قومه له :

هم عيرونى أن أمى غريبةٌ وهل فى كريم ماجدٍ ما يُعيرُ
وقد عيرونى المال حين جمعتُ وقد عيرونى الققر إذ أنا مُقترُ

لكنه تناسى السبب الذى من أجله ثارت عليه القبيلة والذى يعلمه فى دخيلته وهو ابتعاده عن مشاركة سيفه فى قتال «الأعداء» الذين هم أبناء العمومة - لأن صفة البخل كانت مذمومة عند العرب ولم يتوقفوا كثيراً إلا لنجح الكرام.. وانفرد عروة..

كان خروجه هذه المرة من الوادى إلى حيث الفضاء الرملى المتسع.. والذى يعرف أن الكثير من الأحداث تكمن له خلف تلالة.. فقطع صحراء نجد، جنوباً إلى الحرة الشرقية التى فى آخرها خيبر وآخر وادى خيبر الطريق إلى يثرب لكنه طمع فى خيبر وكانت موطناً لليهود وذات حصون وعيون مائية ونخيل كثيرة وخير عميم وكان يهود خيبر - ككل اليهود فى أى مكان - مقترين وبخلاء وكانت البعوض تكثر بأرضهم بسبب وفرة المياه أى كان مرض الملاريا يهدد من يدخلها دون علم به، وعلى رغم هذا كان اليهود يعيشون دون أن يصابوا به، ولعلمهم كانوا يعرفون سر دواء يكافحون به المرض فلما اشتدت عليهم العرب فى طلب معرفة هذا الدواء قالت اليهود: إنه يعنى ببساطة أن ينهق الرجل كالحمار عشر مرات على أبواب المدينة فيسلم من المرض، وقد ذاعت الخرافة وأخذت شهرتها شهرة خيبر المكدة بالخيرات وقد أثبت عروة بشعره ذهابه إلى هناك واستخفافه بخرافة

النهيق «ألم نقل إن عقله كان متطوراً» وإصراره على إصابة شيء من خيرات هذه البلدة بالحسنى أو.. بالحرب.. ولكنه لم يذكر كيف عاد وبأى شيء.. وقالوا أحب وانهق لا تضيرك خيبر وذلك من دين اليهود ولو ع لعمري لئن عشت من خشية الردى نهاق الحمير فأننى لجزوع نفس التحدى الذى أوقف زوجته سلمى فى طريقه حين أحست أنه «سيحترف» الإغارة على القبائل لكى يطعم فقراءه الذين يتكاثرون ويكثرون من حوله وهو يحمل هم إطعامهم وسقيهم وكسائهم.. أى إنه بدأ يحتل مكانة الزعامة، لكنها زعامة مختلفة.. فهو زعيم لجوعى دائمين فرخ فى وجه زوجته حتى لا تسد الطريق بينه وبين «مجده» القادم:

ذَرِّينى أَسِيرٌ فى البلاد لَعَلَّنِى
أَصِيبُ غَنِى فى لَدَى الْحَقِّ مُحْمَلُ
فَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَسْطِغْ دِفَاعاً لِحَادِثِ
تَجِنِّ بِه الأَيَّامُ فَالْصَبْرُ أَجْمَلُ
وهكذا بدأ الطريق الصعب.. الطريق الذى مهد به لنظرية اجتماعية سيكون لها خطرهما فيما بعد، لكن المرأة هى المرأة دائماً خاصة إذا كانت زوجة.. وزوجة لمن..؟! لشاعر متمرد وفارس كاسر مثل عروة فتسأله ولا تمل من السؤال إلى أين.. كيف.. ومتى تعود لبناتك ومضاربك ومن يحمينا من بعدك.. ولكنه كان قد أعد لكل شيء عدته فالكثير من الصعاليك يتواجدون لحماية «القبيلة» المتصلة أما زوجته فلها الرد بالقريض:

وَسَائِلَةُ أَيْنَ الرِّحِيلُ وَسَائِلُ
وَمَنْ يَسْأَلُ الصَّلُوكَ أَيْنَ مَذَاهِبُهُ
مَذَاهِبُهُ أَنَّ الْفَجَاجَ عَرِيضُهُ
إِذَا ضُنُّ عَنْهُ بِالْقِيَالِ أَقَارِبُهُ
وقوله:

أَقْلَى عَلَى اللُّومِ يَابَنَةُ مَنْذَرِ
وَنَامَى وَإِنْ لَمْ تَشْتَهَى النُّومَ فَاسْهَرِ
وهكذا تعود دائرة الاتهام لتحيط عبساً وما فعلت ويصلها ذلك شعراً فتبدأ فى الحزن على فراقه - وما كان أسهل أداة «إعلامية» من الشعر فى ذلك الزمان..؟! - يقول الشاعر فيحفظه النقلة ويذهبون به فى الفجاج والوديان فيصل بعد أيام إلى شمال جزيرة العرب فى نفس الوقت الذى يصل فيه إلى جنوبيها، ولعل خطرها

الشعر الذى يكاد أن يُلحق العار بعبس فى أنها طردت أحد أبنائها - خاصة وهى فى حالة حرب - وهـ أبواق» الدعاية المضادة تنتظر أى كبوة لجواد الأعداء لتلتقطها وتثبتها شعراً فى تاريخ القبيلة، فقد كان الشعر هو تاريخ العرب المكتوب، ولذلك لانت عبس أخيراً خاصة حين «أقنعت» نفسها بنبل مقصد عروة فدعته للديار معزراً مكرماً لكنه كان قد اقتنع هو الآخر «بنبل مقصده»، فأقنع نفسه بالاستمرار وهو يهمس فى قصيدة لها - لنفسه - :

خاطرٌ بنفسك كى تصيبَ غنيمةً إن القعودَ مع العيالِ قبيحُ
المال فيه مهابةٌ وتجلُّةٌ والفقرُ فيه مذلةٌ وفضوحُ

وهكذا انتشر خبره، وذاعت «مواقعه» اليومية، وهو ما يثبته شعره:

فَمَا أَنَا عِنْدَ هَيْجَا كُلِّ يَوْمٍ بِمَثَلِ لُجِ الْفُؤَادِ وَلَا جَبَانُ

ونقرأ للدكتور شوقي ضيف رأياً فى عروة أثبته فى كتابه «تاريخ الأدب العربى - العصر الجاهلى» حين يقول: إن عروة بن الورد كان صعلوكاً نبيلاً، فقد طمح إلى مثل إنسانى رفيع فى البر والرحمة والإيثار فارتقى بالصعلكة وجعلها باباً من أبواب السيادة والمروءة، إذ استشعر بقوة فكرة العدالة الاجتماعية، فثار على الأغنياء والأشحاء، وانتصر للفقراء والضعفاء من قبيلته، وسعى لهم أكثر مما سعى لنفسه وزوجه وعبر عن ذلك فى شعره أدق التعبير وأصدق.

ولهذا الضرب من شعره وشعر غيره من الصعاليك الفقراء وأغربة (جمع غراب) العرب قيمة تاريخية كبيرة، فهو يدل على أحوال الفقراء المظلومين والسود المضطهدين فى قبيلته وفى القبائل النجدية الأخرى، كما يدل على أفكارهم الإصلاحية، ووسائلهم العلمية لتحقيق المساواة الاجتماعية، فقد كانوا جميعاً يعانون من التفرقة الطبقية والعنصرية، وكانوا ينشدون العدل والتكافل بين أبناء القبيلة، حتى يرى غنيهم فقيرهم، ويمد لهم يد العون والمساعدة وحتى يحترم صريحهم هجينهم، ويقدره على أساس فضله فى نفسه ونفعه لقبيلته، لا على أساس دمه ولونه، فلما استحال ذلك عليهم، تصعلكوا وخرج فريق منهم على قبائلهم، والتمسوا تحقيق وجودهم وتحصيل أقاتهم بسيوفهم ورماحهم».

ولا نعتذر عن هذا التطويل من كلام الدكتور ضيف إلا لكي نناقشه أو نناقش
النسالة كلها من حيث «المبدأ» فأياً ما تكون الدوافع: نبيلة أو دنيئة، إلا أن السرقة
«كقيمة» لا تندرج في أخلاقيات العرب السائدة وقتذاك، ولا في التأثير الذي
تركته جماعة عروة في نفوس غيرهم - ممن هم على نفس الشاكلة - وإلا فبماذا
نفسر استشراء التناحر والافتتال بين القبائل بعد شيوع الظاهرة، إذا كان هناك
- دائماً - مَنْ يعرف الفاعل - أو الجاني - وبالتالي معرفة مصدره القبلي، وعليه
فإن القبيلة أو العشيرة التي تعرضت للنهب لم تكن لتقول «فاعلمها الصعلوك فلان»
وتكتفى، بل كانت تكمل «وهو من القبيلة كذا وتقع بأرض كذا» ومن ثم كانت
القبيلة المنهوبة - التي أصابها العار في هذه الحالة - تستعد لغسل هذا العار
والثأر لقتلها - الذين لا بد من وقوعهم على أرض المحاولة - فتحمم بخيولها
وتقعق بدروعها وتصلصل بسيفوها.. و.. ترتوى الرمال العربية من جديد بدماء
أخرى كثيرة وتهتك أعراض وتُسبى صبايا، وتستعد القبيلة المنتهكة لرد الصاع..
و.. هكذا.. في دورة دموية لا تنتهي..

لكن.. إذا قال قائل بأن هذه النظرة التي ندعيها تقع في صالح الأخلاقية المثالية،
فإن ردنا يقول بأن هذه «المثالية» كانت موجودة في أعراف العرب الجاهليين
قبل غيرهم وإلا فبماذا نفسر احتفالهم بالجوانب الأخلاقية الرفيعة مثل إغاثة
الملهوف وحماية الضعفاء وستر العورات من الناس، وإكرام الضيف وما إلى ذلك من
صفات حميدة تندرج تحت المسمى الفضفاض للفروسية الحقبة - بمعناها الجمالي
والجدلي أيضاً - وبماذا تفسر التحول الذي طرأ على عروة من مجرد خروجه إلى
«إصابة غنيمة» أو لكي «يصيب غنى» من واقع السبب الأورحد الذي ذكره وهو أن
«المال فيه مهابة وتجلة» لأن «العود مع العيال قبيح» دون نظر لأي أسباب من
مثل ما اجتهد الدكتور شوقي ضيف في تصنيفه «وتصنيفه» ومحاولة إسباغ نظرية
«المساواة الاجتماعية» على مثل أفعالهم، أو من مثل ما اتجه إليه الدكتور يوسف
خليف في كتابه «الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي» من أن «أبا الصعاليك»
يسجل فلسفته في هذه المشكلة الاجتماعية الخطرة: مشكلة الفقر والغنى» أو كما
يقول أيضاً «وعرف هذا الزعيم الشعبي نفسية جماهيره» - هكذا إذن - أصبح عروة

زعيماً شعبياً دون أن يعي ، ولكننا نسأل بماذا تفسر التحول الذى أصابه من التوجه
الأولى الذى حركه وهو الحاجة لكى يقول - فيما بعد - :

وقد علمت سليمى أن رأيى ورأى البخل مختلف شئت
وانى لا يُرينى البخل رأى سواء إن عطشت وإن رويت
أو حين يقول :

فراشى فراش الضيف والبيت بيته ولم يلهنى عنه غزال مقنع
أحدثه ، إن الحديث من القرى وتعلم نفسى أنه سوف يهجع
أو حين يقول :

ومكروب كشفت الكرب عنه بضيقه مأزق لما دعانى
فقلت له أذاك أذاك فانهض وكنت حين أنهض غير وإن

ألم يُرد عروة هنا أن يسبغ على غاراته اليومية صفات أخرى من المثالية
الأخلاقية التى اتهم أن القارئ قد يتهمنا بها فى معرض الحديث...؟!

ألم يفعل عروة ذلك لكى تكتسب حركته الإصلاحية - بتعبير الدكتور ضيف
- شرعية كانت تفتقدها وتعطى له المجال لكى تستقبله قبيلته الأولى عبس بكل
الترحاب وكأنه عائد من رحلة ماجدة...؟!

أليست عبس هذه هى التى استنكرت فعلته الأولى - حتى وإن كان السبب
الحقيقى تقاعسه عن الحرب معها ضد ذبيان...؟!

إن عروة كان ذا عقلية مرنة ومتسعة الأفق - وهو ما أشرنا إليه سابقاً - وذلك
يعنى أنه «أعمل» التفكير هنا بإشاعة هذا «النبل» فى تصرفات غير أخلاقية وذكره
شعراً ليصل بسرعة أكبر للمجموع العربى على أرض الجزيرة العربية ، وهى وسيلة
أكثر تأثيراً من الأفعال نفسها ، فى الذهنية العربية «الموسقة» والباحثة دوماً عن
الإطراب ولغة الإغارة والسلب ، ولكن ذلك يحيلنا إلى التأثير البيئى عليه ، وإن كان
ذلك لا يعنى ضمناً اتفاقنا مع أسلوبه ، وهو أن الجزيرة العربية برمتها كانت تعيش
بهذا الأسلوب ، فما الذى يعنى اجتياح قبيلة لقبيلة لأوهن سبب ودون علة ظاهرة ،
أو لعل مختلقة خصيصاً لتهيين النفوس على مراجعتها ، أليس ذلك سرقة منظمة ،

وإذن كان العرب «يدعون» هذه الأخلاقية المثالية، ويحاولون سبغها عليهم - شعراً دائماً - لكي تستقر في أذهان مخايلهم أو الأجيال الملاحقة لهم.

ألم يكن القتال مسألة ضرورية للقبيلة لكي تشعر بأنها «تعيش»؟!...
ألا يستتبع ذلك بالضرورة استيلاءً على سبايا وهتك أعراض وأعمال قتل وتخريب، وهو نفس ما يفعل فيما بعد - أو حدث فيما قبل - لهذه القبيلة المغيرة، الأمر الذي يعنى أن نساء الجاهلية لم يسلمن جميعاً من السبى وهتك الأعراض، كما يعنى أن كل فرد هو لص، بنفس مقدار لصوصية القبيلة، وهو أيضاً ما يعنى نفى الصفات الحميدة «المزعومة»، ثم ألم يقم الإسلام بعد ذلك بنيد الفرقة بين القبائل بسبب خطر هذه الفرقة وأطلق صفة «الجاهلية» على أساليب هذه الحيوانات المتناحرة..؟!...

ولو كان المجتمع القبلي «متمتعاً» بصفاته الأخلاقية المثالية فما الذى كان يدعو الإسلام إلى نبذ الأخلاقيات السائدة في الجزيرة العربية..؟! أو إلى منع العرب من ترديد أشعار الجاهلية، ليس لأنها تحتفل بالوثن، ولكن لأنها تؤكد هذا المعنى المذموم وتثير حقيقة التناحر وتدعو إلى الاقتتال، وإذا كنا معجبين بحماسة عنثرة حين يقول:

مازلتُ أرميهم بئُغرة نَحْرِهِ ولَبَّانِه حتى تَسْرَبَلَ بالدمِ
وهو هنا يصف بطولته في داحس والغبراء، فإننا في نفس الوقت معجبين بالنابعة الذبياني - في الخندق الآخر - وهو ينشد:

غداةَ تعاورته ثمَّ بِئِضُ دفَعَنَ إليه في الرَّهَجِ المُكْنُ
فأى تمزق هذا..؟!...

في نفس الوقت الذى نعجب فيه بشعر المدح، وهو أكذب ألوان الشعر - وأكثره - من أجل العطايا واكتساب المال وهو تسول بالمعنى الحرفي للكلمة في مثل قول الحطيئة - وكان أشْرَ - لا أشعر - الشعراء، في هذا المقام:

فتى لا يُضَامُ الدهرَ ما عاش جَارُهُ وليس لإدمانِ القَرى بملولِ
هو الواهب الكومَ الصفايا لجاره وكل عتيق الحُرَّتين أسيلِ
مثلما يعجبنا تصوير النابعة - أيضاً - في مدحه النعمان:

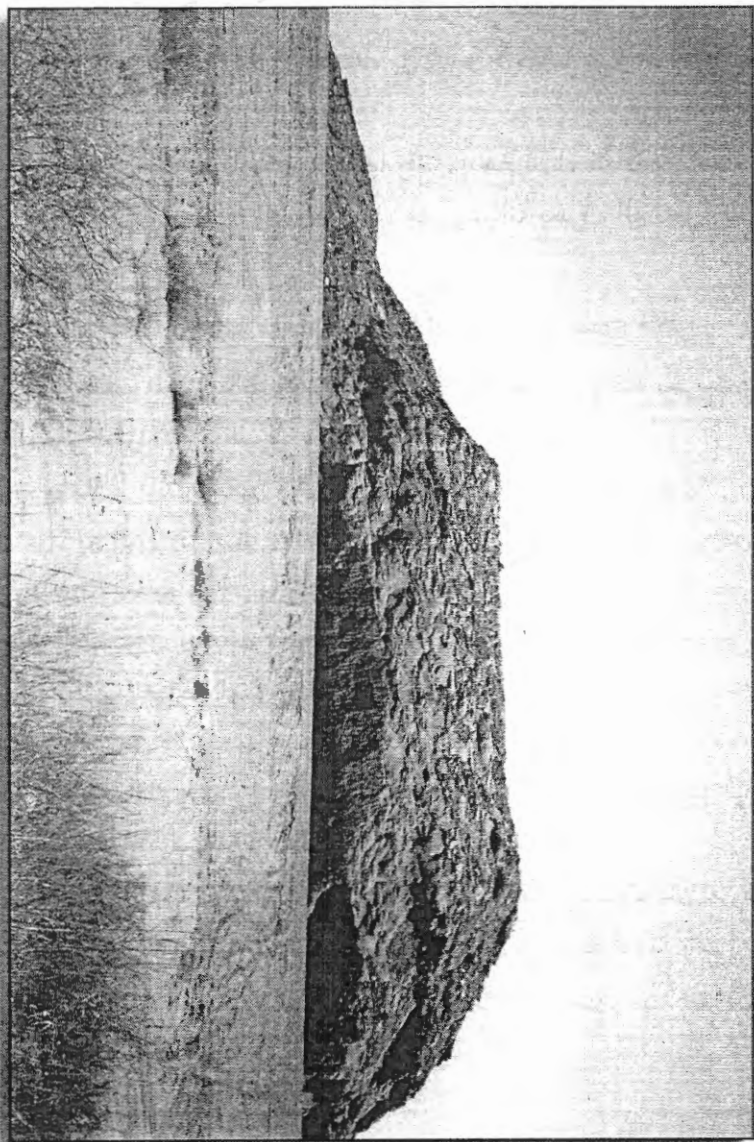
فإنك شمسٌ والملك كواكبٌ إذا طلعتْ لم يَبْدُ منهم كوكبٌ
ولا نستنكر على أنفسنا هذا الإعجاب بل ندرس لأجيالنا مثل هذا الكذب
الكبير...!!

ألم يكن عروة ابن هذه البيئة بكل سلبياتها وقليل إيجابياتها، فلماذا إذن نخلع
عليه وحده صفة اللصوية - والنبيلة أيضاً، على رغم أنه يعترف أنه يفعل ذلك
«لنفسه» فيما يقول:

إذا المرء لم يطلب معاشاً لنفسه شكا الفقرَ أو لآم الصديق فأكثر
وهو هنا يطلب المعاش بالطريقة «المستخدمة» في الحياة، ولكنه يخرج عن
السياق الجمعي ليغرد خارج السرب وحده..

وعلى رغم ذلك، فإننا نستعين برأى أبى الفرج الأصفهاني فيه حين يقول:
«كان عروة بن الورد إذا أصابت الناس سنة شديدة وتركوا في دارهم المريض
والكبير والضعيف..، يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس من عشيرته في الشدة،
ثم يحفر لهم الأسراب (البيوت تحت الأرض) ويكنف عليهم الكنف (الحظائر)
ويكسيهم (يطلب المعيشة لهم)، ومن قوى منهم خرج به معهم فأغار، وجعل
لأصحابه الباقيين من ذلك نصيباً حتى إذا أخصب الناس وألبنوا وذهبت السنة،
ألحق كل إنسان بأهله وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها، فربما أتى
الإنسان منهم أهله وقد استغنى، فلذلك سمي عروة الصعاليك».

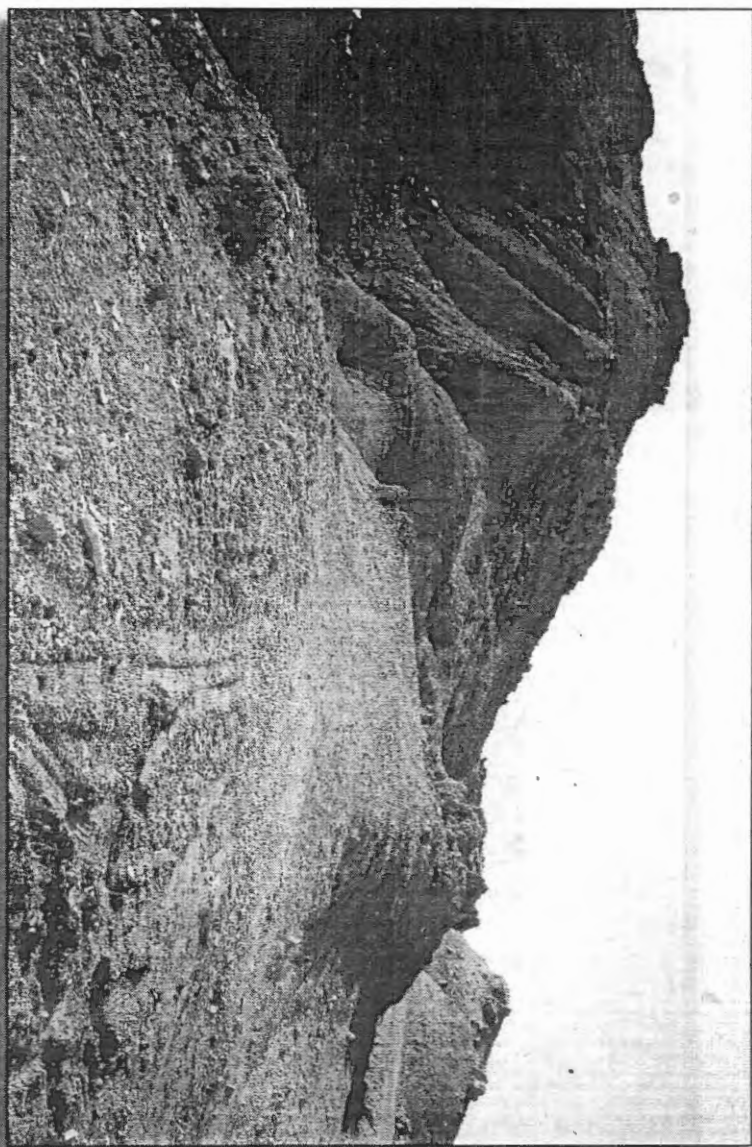
ولا يزداد عجبنا إذا قرأنا أن معاوية بن أبي سفيان كان يقول «لو كان لعروة
ابن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم» وكان عبد الملك بن مروان يقول «من زعم أن
حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد» وكان يقول: «ما يسرنى أن أحداً من
العرب ولدني ممن لم يلدني إلا عروة بن الورد»..
فأى الجانبين أصوب...!؟



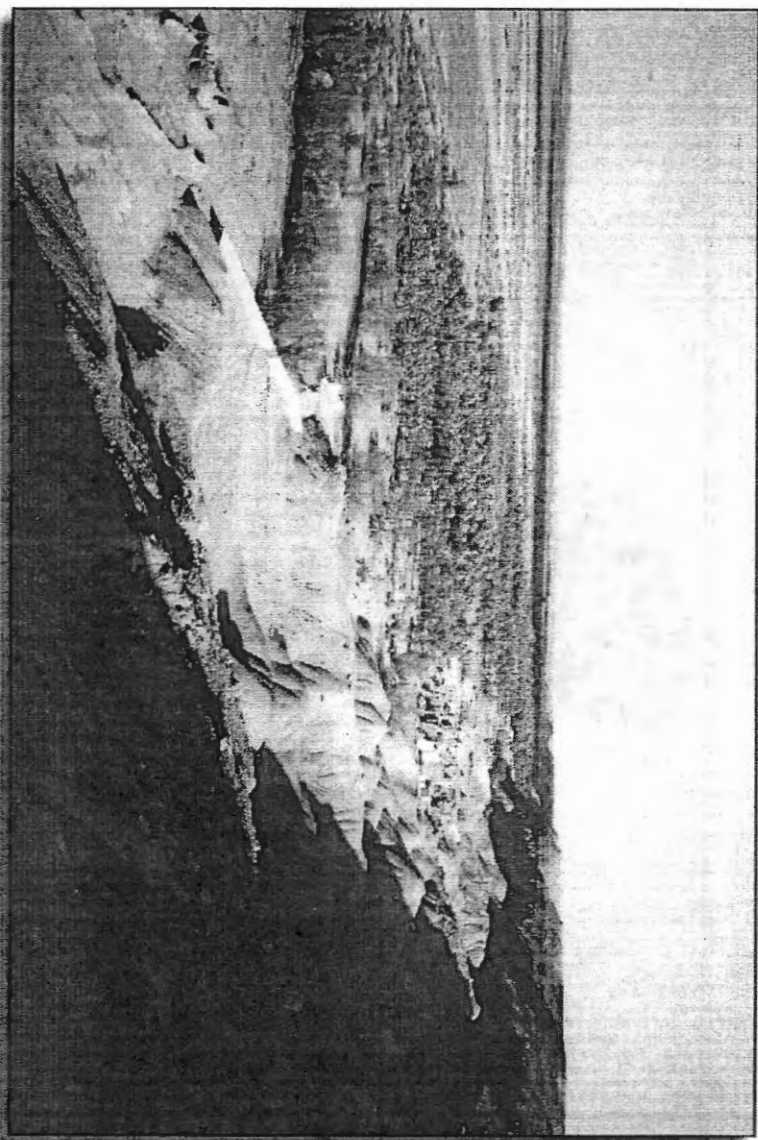


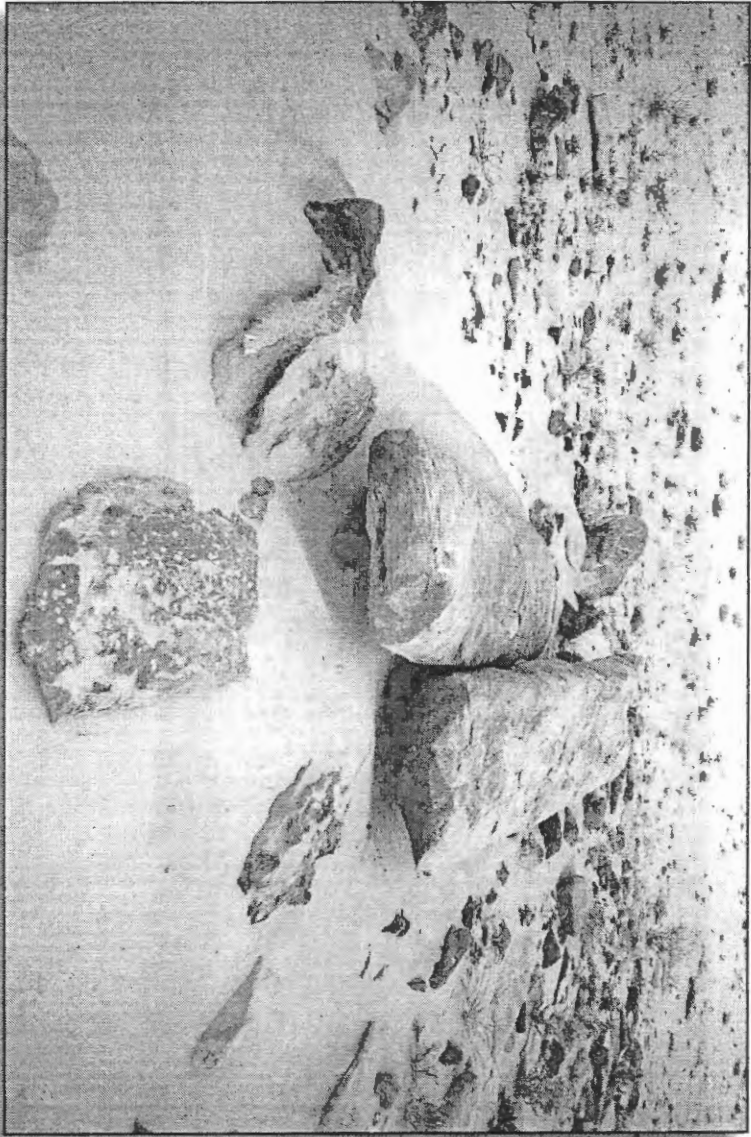
جانب من وادي الرمة الواقع شمال السعودية.

جانب من جبال وادي الرمة.



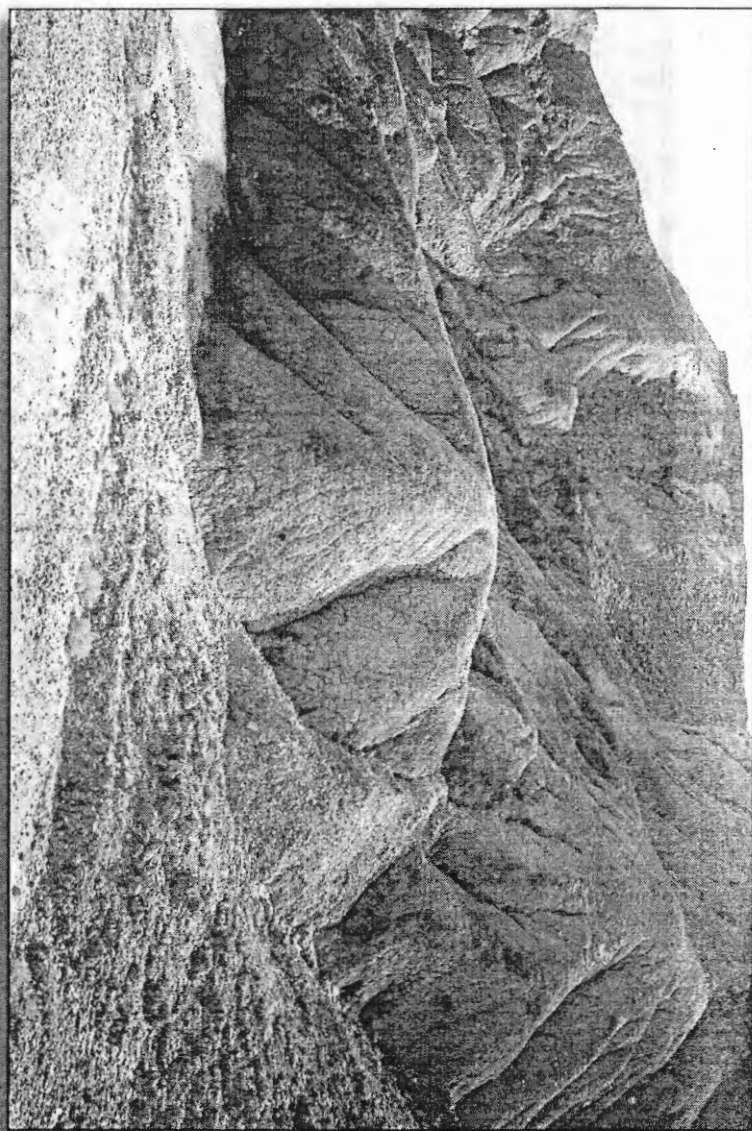
جانب دهشمه من وادی الرومة القاحل.





بقايا صخور في وادي الرمة.

جبال محیطہ برادی الرمه.



لنقطة لجزيرة جبلية من وادي الرمة.

